

السنة : الأولى

المادة: فقه اللغة

## المحاضرة الثالثة :

### اللغة العربية واللغات السامية

تهدف هذه المحاضرة إلى ما يلي:

أولاً: التعرف على التأليف في فقه اللغة عند العرب

ثانياً: التعرف على الفصائل اللغوية

ثالثاً: التعرف على الساميون ومهد اللغة العربية

رابعاً: التعرف على شجرة اللغة العربية

والإشكالية الكبرى لهذه المحاضرة هي: إلى أي مدى يمكن الكشف عن أصل اللغة العربية؟

### أولاً: التأليف في فقه اللغة عند العرب:

إن التأليف في فقه اللغة قد مرَّ بأدوارٍ جديرة أن تسجل، تقف الباحث على نشأة هذا العلم وتطوره، وإن من العسير استيعاب جميع الكتب المتعلقة بفقه اللغة تعلقاً غير مباشر؛ كالمصنفات النحوية والصرفية، والمباحث البلاغية، ووجوه القراءات المتواترة والشاذة، فلا بد لنا أن نقصر حديثنا على التأليف التي توفر أصحابها على دراسة ما يرتبط ارتباطاً قوياً بفقه اللغة علماً مستقلاً قائماً بنفسه، لا يناقض التعريف الذي قدمناه له.

لعل أقدم ما وصلنا من هذه الدراسات مباحث الأصمعي "أبي سعيد عبد الملك بن قُرَيْب"، المتوفي سنة 215هـ، عن الاشتقاق في العربية، وفي تسميتها فقه اللغة كثير من للتجوز؛ لأنها لا تعدو ملاحظات عامة اتسع القول فيها فيما بعد، وأوضحت جزءاً هاماً من هذا العلم العظيم.

ثم أنشأ ابن جني "أبو الفتح عثمان" المتوفي سنة 392هـ، الفقيه اللغوي العبقرى كتابه "الخصائص"، وراح يناقش فيه بفكره الثاقب ومنطقه السليم أبحاثاً خطيرة في أصل اللغة "الإلهام هي أم اصطلاح" وفي مقاييس العربية، واطرادها وشذوذها، وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها، واتفاق

اللفظين واختلاف المعنيين، والاشتقاق الأكبر، وتركب اللغات، واختلاف اللهجات، ومع أن "خصائص" ابن جني أجدر الكتب أن تسمى بـ"فقه اللغة"، ضنَّ عليها مؤلفها بهذا الاسم!

أما أحمد بن فارس "أبو الحسين القزويني" المتوفى سنة 395هـ، وهو أستاذ صاحب بن عباد، المتوفى سنة 385هـ، فقد خلع على مباحثه في نشأة العربية اسم: "الصاحبي في فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها"، وذهب إلى أن اللغة إلهام وتوقيف، مستندلاً بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. على أنه ضمَّن كتابه هذا بعض المباحث الهامة حقاً في فقه العربية؛ كخصائص هذه اللغة، واشتقاقها، وقياسها، ومترادفها، ومجازها، واشتراكها، ونحتها، واختلاف لغاته ولهجاتها.

ونرى الثعالبي "أبا منصور عبد الملك بن محمد"، المتوفى سنة 429هـ، ينشئ بعد ذلك كتابه "فقه اللغة" الذي لا تجد اسمه إلا كالثوب الفضفاض عليه، فإنه لم يضمه إلا بعض المباحث القليلة التي يمكن أن تتعلق بهذا العلم، كإيراده بعض الألفاظ العربية التي نسبها أئمة اللغة إلى الرومية، أو بعض الأسماء القائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحد، أو الأسماء التي تفردت بها الفرس دون العرب، فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي، أو الأسماء التي ماتت فارسيته، مع أن عربيتهما ما تزال مستعملة محكية؛ وهذه المباحث مبنوثة في الباب التاسع والعشرين من كتابه، ولا تشغل أكثر من خمس عشرة صفحة.

أما ابن سيده "أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي"، المتوفى سنة 458هـ، فقد عرض في كتابه "المخصص" لبعض البحوث المتعلقة بنشأة اللغة العربية، وبالترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق، وتعريب الألفاظ الأعجمية، ونحو ذلك، والمخصص يقع في سبعة عشر جزءاً، وهو حسن التنسيق دقيق.

ثم يجمع جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911، من علماء القرن التاسع الهجري، كتابه العظيم "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" من أكثر الكتب المتقدمة، ويزيد عليها بعض الأبحاث الجديدة، ولعل كتابه -بتنوع أبوابه، واتساع أغراضه- ألصق المؤلفات بفقه اللغة؛ ففيه تقرأ عن نشأة اللغات، وتداخلها، وتوافقها، والمصنوع والفصيح، والمستعمل والمهمل، والحوشي والغريب، والمعرب والمولد، والاشتقاق والاشتراك، والترادف والتضاد، والنحت، والتصنيف، والتحرير، والشوارد والنوادر، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم، ويقع في جزئين كبيرين.

وفي القرن الحادي عشر يعنى شهاب الدين الخفاجي خاصة بالألفاظ الدخيلة على العربية، فيؤلف في ذلك كتابه "شفاء الغليل، فيما ورد في كلام العرب من الدخيل".

## ثانياً: الفصائل اللغوية

لعل أفضل النظريات في تقسيم اللغات هي التي تعول على صلات القرابة اللغوية، فتنشئ من كل مجموعة مماثلة أو متشابهة في الكلمات وقواعد البنية والتراكيب فصيلة من الفصائل، تؤلف بينها غالباً روابط جغرافية وتاريخية واجتماعية.

وعلى هذا الأساس لاحظ العلماء مجموعتين هامتين متميزتين، سماوا إحداهما: الفصيلة الهندية - الأوربية Indo - Europeenne، والأخرى الحامية - السامية Chamito - Samitiques، وتنبهوا إلى صلات القرابة بين اللغات الداخلة تحت كلٍّ منهما على حدة، وإلى الصفات المشتركة بين الفصيلتين كلتيهما، ثم جاء ماكس مولر Max Moller بتقسيمه الثلاثي للغات، حين سمي طائفة من اللغات الآسيوية والأوربية التي لا تدخل تحت الفصيلتين السابقتين باسم اصطلاحى هو الفصيلة الطورانية Touranienne. وإنما كان الاسم اصطلاحياً؛ لأن أفراد الفصيلة الأخيرة متنوعة جداً، ومتباعدة جداً، وليس بينها روابط لغوية واضحة، وهذا ما دعا المحدثين من علماء اللغة إلى تقسيم ما بقي من اللغات الإنسانية إلى تسع عشرة فصيلة، تنفرد كل فصيلة منها بروابط من القرابة اللغوية في الأصول والقواعد والتراكيب، وبذلك أصبحت فصائل اللغات الإنسانية إحدى وعشرين؛ أهمها الأوليان، والباقية ثانوية متفرقة في أنحاء مختلفة من العالم، ولا بد من كلمة عجلى حول الفصيلتين الهامتين.

### أ- الفصيلة الهندية - الأوربية:

وهي أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً، والشعوب الناطقة بها جليلة الأثر في الحضارة الإنسانية الحديثة، ومن العسير تحديد موطنها الأصلي، فمن ذاهب إلى نشأتها في آسية بمنطقة التركستان، ومن قائل بنشأتها في المناطق الروسية بأوروبا الشرقية، ومن أنها في مناطق بحر البلطيق. وهي تشتمل على ثمانٍ من طوائف اللغات:

1- اللغات الآرية: بفرعيها الهندي والإيراني.

2- اللغات اليونانية: وتشمل اليونانية القديمة، واليونانية الحديثة التي قامت على أنقاض القديمة في القرون السابقة للميلاد، ولغة اليونان في العصر الحديث.

3- اللغات الإيطالية، وأهم فروعها: اللاتينية التي تشعبت منها الفرنسية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية ولغة رومانية.

- اللغات الجرمانية، وأهمها شعبتان: شعبة اللغات الجرمانية الغربية، وفيها الإنجليزية - السكسونية، والإنجليزية الحديثة، والهولندية والألمانية، وشعبة اللغات الجرمانية الشمالية، وهي لغات الدانيمرك والسويد والنرويج.

5- اللغات السلافية: وهي شعبتان صقلبية وبلطيقية؛ فمن الصقلبية الروسية، والتشيكية، والبولونية، والبلغارية الحديثة، ومن البلطيقية: الليتوانية، والبروسية القديمة.

6- اللغات الأرمنية.

7- اللغات الألبانية.

8- اللغات الكلتية التي كان ينطق بها شعوب الكلت Les Cletes، وقد غلبتها الآن اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، وإن بقيت ظواهر منها في لهجات إيرلندا ومنطقة البريتون Bretagne غربي فرنسا.

### ب- الفصيلة الحامية - السامية:

وليست المناطق التي تشغلها هذه الفصيلة شديدة الاتساع كالمناطق التي تشغلها الفصيلة الأولى "الهندية - الأوربية" فلا يعدو ما تشغله بلاد العرب وشمال إفريقيا وجزءاً من شرقي إفريقيا، غير أن مناطقها تكاد تشكل منطقة واحدة متماسكة الأجزاء، مستقلة ليس فيها عنصر دخيل، وتلك مزية كبيرة من مزاياها، وهي ذات مجموعتين:

أ- مجموعة اللغات الحامية، وفيها المصرية والبربرية والكوشيتية.

وقد اصطلح على إدخالها في مجموعة واحدة، مع أن صلات القرابة بينها ضعيفة، ولذلك يعد بعضهم كل فرعٍ منها مستقلاً برأسه على حدة.

واللغة المصرية تشمل المصرية القديمة والقبطية، أما البربرية فهي لغة السكان الأصليين لشمال أفريقية "تونس ومراكش والجزائر وطرابلس والصحراء والجزر المتاخمة لها"، وأهمها اللغة القبلية Kbyle، والتماشكية Temachek وهي لغة قبائل التوارج Touareg "الطوارق".

وأما الكوشيتية فهي لغة السكان الأصليين للقسم الشرقي من إفريقيا، وبها يتكلم نحو ثلث سكان الحبشة. وهناك مناطق في الحبشة تتكلم بلغة سامية.

ب- مجموعة اللغات السامية، وسنتكم عنها بتفصيل بعد قليل؛ لأن لغتنا العربية تفرعت منها.

ج- فصائل اللغات الإنسانية الأخرى:

أما بقية اللغات الإنسانية الأخرى فقد ذهبت جمعية علم اللغة بباريس إلى قسمتها إلى تسع عشرة فصيلة أهمها:

1- فصيلة اللغات الطورانية؛ كالتركية والمغولية والمنشورية، وبها سمى ماكس مولر جميع

الفصائل الباقية على سبيل الاصطلاح الخاص.

2- فصيلة اللغات اليابانية.

3- فصيلة اللغات الصينية - التيبية "ومنها لغة سيام".

4- فصيلة اللغات الكورية "لسكان شبه جزيرة كورية".

5- فصيلة اللغات القوقازية "ويستثنى منها اللغات القوقازية السامية، والهندية الأوروبية".

6- لغات الهندو الحمر في أمريكا، وهم سكانها الأصليون.

7- لغات السودان وغانة، وقد قسمها العلامة Maurice Delafosse إلى 435 لغة، ترجع إلى

ست عشرة شعبة، أهمها الشعبة النيلية، والشعبة النوبية، والشعبة الاستوائية، والشعبة الكونغوية.

8- اللغات الملايوية البولينية Malayo - Polynesiennes ومنها الأندونيسية والميلانيزية

"جزر سليمان، وسانت كروز، وتوريس".

وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس Societe de linguistique paeis بحثاً موجزاً في

دراسة هذه الفصائل التسع عشرة، بإشراف الأستاذين Meillet ومارسل كوهين Marcel Cohen،

فجاء البحث في نحو ست مئة صفحة من القطع الكبير "من 153-713"، وذلك في الكتاب

الضخم الشهير "لغات العالم" "Les langues du Monde".

طريقة أخرى لتقسيم اللغات إلى فصائل:

هناك طريقة أخرى لا تعول في تقسيم اللغات على صلات القرابة اللغوية، بل تستند في هذه القسمة إلى قوانين التطور والارتقاء المتعلقة بقواعد الصرف والتنظيم. وأشهر نظرية في هذه الطريقة هي نظرية العلامة شليجل Schlegel, التي اتبعه عليها كثير من الباحثين.

في ضوء هذه النظرية ثلاث فصائل:

1- اللغات التحليلية Analytiques.

2- اللغات الإلصاقية Agglomerantes.

3- اللغات العازلة isolantes.

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الإنسانية نشأت عازلة، ثم تطورت فأصبحت إلصاقية، ثم ارتقت أخيراً إلى التحليلية.

أ- واللغة العازلة هي غير المتصرفة؛ فبنية الكلمات فيها لا تتغير، وأصولها لا تلتصق بها حروف زائدة لا قبلها ولا بعدها، وليس بين أجزاء تراكيبها روابط وصلات، ويدخل في هذه اللغة الصينية، وكثير من اللغات البدائية. ب- واللغة الإلصاقية: هي لغة وصلية تمتاز بالسوابق prefixes واللواحق Suffixes, التي تربط بالأصل فتغير معناه، وعلاقته بما عداه من أجزاء التركيب، وأشهر هذه اللغات: اليابانية والتركية وبعض اللغات البدائية.

ج- واللغة التحليلية: هي المصرفة التي تتغير أبنيتها بتغير المعاني وتحلل أجزاءها المترابطة فيما بينها بروابط تدل على علاقاتها، ومن هذه اللغات: السامية، وفي طليعتها العربية، وأكثر اللغات الهندية، والأوربية.

وأصحاب هذه النظرية يستدلون على مراحل التطور فيها بلغة الطفل ولغات الأمم البدائية، ويرون أن مرحلة التصريف والتنظيم مرحلة متأخرة في اللغات الإنسانية، ولكن هذا خطأ، فجميع الظواهر "العزل والإلصاق والتصريف" موجودة في مختلف الألسنة، ومن العسير أن تتجرد منها لغة من

اللغات 1.

وقد حاول كثير من الباحثين أن يقارنوا بين الفصليتين الهامتين "السامية" و"الهندية والأوربية"، والتوسع في هذا خارج عن نطاق بحثنا؛ فسنكتفي بإشارة عابرة إلى خصائص اللغات السامية تمهيداً لبحث خصائص لغتنا العربية التي تفرعت عنها.

### ثالثاً: الساميون وأصل اللغة العربية

يطلق العلماء اليوم على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمينية والبابلية - الآشورية، لقب الساميين وكان العلامة الألماني شلوتزير أول من استخدم هذا اللقب في إطلاقه على تلك الشعوب؛ وقد شاركه عالم ألماني آخر هو أيكهورن، في أو أواخر القرن الثامن عشر، بتسمية لغات هذه الشعوب "باللغات السامية".

والتسمية لم تخترع اختراعاً، فهي مقتبسة من الكتاب المقدس الذي ورد

فيه أن أبناء نوح هم سام وحام ويافت، وأن القبائل والشعوب تكونت من سلالتهم.

ويبدو أن اللغات السامية قبل تفرقها كانت ترجع إلى أصل واحد، وتشكل شبه وحدة شعبية، إلا أن من العسير جداً تعيين ذلك الأصل وتحديد هذه الوحدة؛ لأن المهد الأول للساميين ما يزال غامضاً مجهولاً، رغم أبحاث العلماء الكثيرة الواسعة الآفاق، وليس يعنينا هنا أن نعرض للآراء المتباينة بهذا الصدد، بل نتكفي بالإشارة إلى أن إرنست رينان الفرنسي وبروكلمان الألماني، يرجحان أن الموطن الأول للشعب السامي هو القسم الجنوبي الغربي، من شبه الجزيرة العربية.

وفي دائرة الدراسات السامية حظيت لغتنا العربية بكثير من العناية، فكانت في نظر بعض

الباحثين، وفي طليعتهم العلامة أولسهوزن أقدم اللغات السامية، وإن كان كثير من الفقهاء اللغة وعلماء الاستشراق يرفضون هذا الرأي ولا يستسيغونه.

واللغات السامية -بوجه عام- تشترك في عدد من الخصائص الدالة على وحدة أصلها، فهي

تمتاز عن سائر اللغات الأخرى بأن أصول كلماتها تتألف غالباً من ثلاث أصوات ساكنة "ض ر ب" وإن كان بعض العلماء المحدثين يجنح إلى ثنائية الأصول السامية؛ كالأب مرمجي الدميني

في كتابه "هل العربية منطقية؟ أبحاث ثنائية ألسنية. والقائلون بثلاثية الأصول السامية يردون

الرباعي منها إلى الثلاثي؛ فيردون دحرج مثلاً إلى دحر أو درج، لما فيهما من معنى الإبعاد

والدفع، واللغات السامية تمتاز في دلالتها على المعنى الأصلي باعتمادها على حروف المباني، وفي تفرقتها بين المعاني المتكافئة باستخدامها حروف المعاني أو الحركات، نحو لفظ "م ل ك" فهو يدل على معنى مشترك بين عدد من الكلمات التي تتألف من هذه الأصول الثلاثة، فمنه مَلَك، مُلِك، مَلِك، مُلِك، .

## رابعاً: شجرة اللغات السامية:

وإذا أردنا أن نصف شجرة اللغات السامية لنرى كيف تفرعت عنها لغتنا العربية، وكيف امتازت عن أخواتها بخصائص مستقلة، وجدنا تلك اللغات في أصل نشأتها تنقسم إلى شرقية وغربية، فالشرقية هي اللغات البابلية - الآشورية، أو الأكادية، كمال يسميها المحدثون من فقهاء اللغة، نسبة إلى بلاد أكاد وكان الأقدمون يسمونها: "الإسفينية أو المسمارية" لأن الناطقين بها أخذوا الخط المسماري ذا الزوايا عن الشعب السومري، حين تدفقوا إلى منطقتهم في القسم الجنوبي من بلاد العراق، ويظن أن المتدققين على تلك المنطقة كانوا من القبائل العربية التي توالى هجراتها منذ الألف الثالث قبل الميلاد على وجه التقريب "3000 سنة ق. م".

والغربية: تنقسم هي الأخرى إلى شعبتين: شمالية وجنوبية، وفي الشمالية: الكنعانية والآرامية. أما الكنعانية: فهي لغة القبائل العربية التي نزحت على الأرجح من القسم الجنوبي الغربي من بلاد العرب، واستوطنت فلسطين وسورية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط، وكان ذلك حوالي الألف الثاني قبل الميلاد "2000 ق. م" وهي تشمل اللهجات التالية:

1- الأجرينية: وهي أقدم لغات المجموعة الكنعانية وأشهرها، اكتشفت نقوشها سنة 1926 في رأس شمراء على الساحل السوري للبحر المتوسط، ويرتد تاريخها إلى القرن 14 ق. م. وعن هذه الأجرينية أخذ العالم الكتابة الأبجدية.

2- الكنعانية القديمة: وقد جاءنا بعض مفرداتها في رسائل تل العمارنة "عاصمة مصر في عهد إخناتون". كانت مدونة باللغة الأكادية، وقد تبودلت بين ولاية مصر على فلسطين، وبين فراعنة ذلك العهد "أمنوفيس الثالث، وأمنوفيس الرابع، وإخناتون" في أواخر القرن الخامس عشر، والنصف الأول من القرن الرابع عشر "1411-1358" ق. م.

3- المؤابية1: وهي لهجة المؤالبيين الذين كانوا من نسل لوط بن أخي إبراهيم الخليل، كما جاء في العهد القديم، وقد عثر على نقشٍ مدوّن بهذه اللهجة، هو نقش ملك المؤابيين ميشع، وفيه يصف انتصاره على ملك إسرائيل، وتاريخ هذا النقش لا يجاوز سنة 900 ق. م.

4- الفينيقية: وقد وصلت إلينا عن طريق بعض النقوش، وقطع النقود التي عثر عليها في أقدم المواطن الفينيقية "صور، صيدا، جبيل"، ولقد رحلت اللهجة الفينيقية مع أصحابها خارج الوطن الأصلي حتى استقرّ في حوض البحر المتوسط، ولا سيما في قرطاجنة، وكانت اللهجة الشائعة في قرطاجنة هي البونية وهي متفرعة عن الفينيقية، غير أن البونية قُدِّرَ لها أن تبقى حتى القرن الخامس بعد الميلاد، فعاشت عمراً أطول من عمر أمها الفينيقية الأصلية، وأقدم النقوش الفينيقية إنما يرجع تاريخه إلى القرنين التاسع والعاشر ق. م.

5- العبرية: وهي أهم اللهجات الكنعانية على الإطلاق، وقد وصلت إلينا عن طريق أسفار العهد القديم، وفي ثنايا بعض النقوش واللوحات الصخرية، وأحياناً عن طريق تلاوة اليهود لآيات التوراة وبعض الأوراد، ونحن نقصد بالعبرية طبعاً عبرية العهد القديم، وهي تختلف اختلافاً عظيماً عن العبرية الحديثة التي أصبحت لغة الآداب اليهودية المستحدثة.

هذه هي لهجات الكنعانية: الأجرينية، والكنعانية القديمة، والمؤابية، والفينيقية، والعبرية. وأما الآرامية: فيؤخذ من بعض الآثار الآشورية - البابلية، أن قبائلها قد هاجرت من الجزيرة أيضاً إلى أرض بابل وآشور، فيما بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد، وقد كانت الآرامية من العنفوان والقوة بحيث استطاعت أن تفرض نفسها على جميع أخواته الشرقية والشمالية، حتى أضحت لغة التخاطب السائدة في الشرق الأدنى. وفي المرحلة الزمنية المحصورة بين سنتي 300 ق. م و650 بعد الميلاد، كانت هذه اللغة الآرامية قد بلغت ذروة مجدها في جميع بلاد العراق من جهة، وفي سورية وفلسطين وما يجاروهما من جهة أخرى، ويقدر بعض فقهاء اللغة مساحة البلاد الناطقة بتلك اللغة في المرحلة المذكورة زهاء 600 ألف كيلومتر مربع، ولم يكن بد من أن تنتشعب هذه اللغة إلى مجموعة من اللهجات، فشملت المجموعة الشرقية منها اللهجات السائدة في بلاد العراق، وشملت المجموعة الغربية منها اللهجات الباقية المستخدمة في سورية وفلسطين وشبه جزيرة سيناء.

## المراجع

- 1- فقه اللغة الدكتور حاتم الضامن
- 2- فصول في فقه العربية الدكتور رمضان عبد التواب
- 3- دراسات في فقه اللغة صبحي الصالح
- 4- فقه اللغة العربية الدكتور كاصد الزيدي
- 5- فقه اللغة الدكتور علي عبد الواحد وافي
- 6- فقه اللغة محمد المبارك